المحاضرة الأولى: ماهية علم السكان

تمهيد: سمح التزايد السكاني المتسارع الذي يشهده العالم المعاصر من تعاضم أهمية الدراسات السكانية، و توسع نطاق البحث فيها في شتى أقطار المعمورة، و ذلك لما لها من أثر مباشر في الكثير من المتغيرات الدولية منها و المحلية، كما سيتضح لنا بعض ذلك في المضامين المعتمدة ضمن محاور هذا المقياس، مستبقين في تحصيل ذلك الإحاطة بكل الجوانب التّي تمكن من تعميق فهمنا بهذا الحقل المعرفي، و ذلك ضمن سياق تفصيلي متدرج توزعت نقاطه على محاضرتين، ركزت الأولى منهما و التّي هي محور حديثنا في هذه المحاضرة، على إيضاح مفهومه و أهميته أما المحاضرة الثانية عوامل النشوء و مراحل التطور التّي عرفتها مسيرته حتى الآن.

1- مفهوم الديمغرافيا: يقتضي الحديث عن علم السكان و إدراك مدى أهميته في ميادين الحياة المختلفة، التوقف ملياً عند الاشتقاق اللغوي لهذا المصطلح و ظروف تبلوره، وصولاً إلى الدلالة الإصلاحية له، بما تنطوي عليه من تفاوت بين معنيين يتنازعانه، أحدهما ذو معنى ضيق، و الآخر يتسع بنطاقه إلى فضاءات أوسع سنقف عليها في التناول اللاحق.

أ/ الإشتقاق اللفضي: حضي علم السكان في مسيرة نشأته و تطوره بعدد من المسميات، فأطلق عليه البعض مسمى **الإحصاء الحيوي**، في الوقت الذي سماه **إميل دوركايم** تحت تأثير المد التصاعدي للفلسفة الاجتماعية **بالمورفولوجيا الاجتماعية**، و ذلك للدلالة على دراسة السكان و أحوالهم من منظور اجتماعي، قبل أن يستقر به المطاف في الأخير عند مصطلح الديموغرافيا، و الذي تمّ استخدامه لأول مرة من قبل العالم البلجيكي GUILLARD ASIL " أسيل غيار" ، و ذلك في الكتاب الذي أصدره سنة 1855 تحت عنوان " **مبادئ الإحصاء البشري أو الديمغرافيا المقارنة**"، و هو المصطلح الذي جرى اشتقاقه من لفظين يونانيين، و هما: DEMOS و تعني النّاس أو السكان، و GRAPHY و التّي تشير إلى معنى العلم أو

الدراسة الوصفية، لتصبح العبارة في دلالتها الإجمالية تعني العلم المهتم بوصف السكان و دراستهم دراسة إحصائية[1]

ب/ تعريف الديمغرافيا: أقدم الكثير من المهتمين بهذا الحقل المعرفي، على إيراد عدد من التصورات الإصلاحية الخاصة به، و التّي كان القصد منها التوصل إلى صياغة مضبوطة لمعانيه الحقيقية، و التّي كان أولها ما عبر عنها **أسيل غيار** في قوله أنها:" تمثل التاريخ الطبيعي و الاجتماعي للجنس البشري، و هو بالمعنى الضيق الدراسة الرياضية للسكان من حيث تحركاتهم العامة و أحوالهم الفيزيقية، الحضارية، الفكرية و الأخلاقية[2]. و هو التعريف الذي اتسم بقدر من العمومية و الغموض، الذي يكتنف عادة مجموع المساعي الأولى الهادفة لضبط معنى دقيق لأي حقل معرفي ناشئ، و هي المحاولات التّي توالت بعد ذلك، من ذلك ما أقدم عليه الباحث الأمريكي و "**يلكوكس Wellcox**"، و الذي استعرض في كتابه المسمى ب:" **دراسات في الديمغرافيا الأمريكية**" الصادر في سنة 1940، عددا من التعاريف التّي ظهرت لهذا المصطلح، و التّي أظهرت حجم التباين بين المعاني المختلفة لها، و انتهى من خلالها إلى أنّ هذه الكلمة تستخدم اليوم عموما لتدل على دراسة الظواهر ذات الصلة بالسكان، مثل المواليد، الوفيات و الهجرة و كذلك دراسة العوامل التّي توثر في هذه الظواهر. و هو المعنى الذي يكاد يتفق مع ما ذهب إليه "**دنيس رونج D.Wrong**" في قوله بأنّ:" الديمغرافيا تتناول أعداد السكان و توزيعهم في منطقة ما، و التغيرات التّي تطرأ على أعدادهم على مر الأيام، و العوامل الرئيسية التّي تؤدي إلى هذه التغييرات، و مادام النّاس يولدون و يموتون و يغيرون في أماكن إقامتهم باستمرار، فإنّه تظهر هناك عوامل ثلاثة و هي: المواليد، الوفيات، الهجرة، و التّي تسهم أكثر من غيرها في تحديد حجم السكان و نموهم، و هي تمثل الموضوعات الأساسية في الديمغرافيا"[3]. هذه المجموعة من التعاريف، تسمح لنا من التمييز بين نوعين من المعاني المقاربة لمصطلح **الديمغرافيا**، يتسم النوع الأول منها **بالضيق** و يمكن في إطاره

1- فراس البياتي، مورفولوجيا السكان، موضوعات في الديمغرافيا، مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت، 2009،ص25-26.

2- فراس البياتي، المرجع السابق، ص25-26.

3- علي عبد الرزاق جلبي، علم اجتماع السكان، دار المسيرة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن،2011، ص73.

تعريفها بأنّها:" **تدرس حجم السكان و توزيعهم و تركيبهم و التغيرات التّي تطرأ عليهم**"، حيث يقصد ب:

- **حجم السكان:** عدد الوحدات أو الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع.

- **التوزيع:** يشير إلى ترتيب السكان من حيث المكان و الزمان، و يندرج ضمن هذا التوزيع مثل سكان الأرياف و المدن خلال فترة زمنية محددة.

- **التركيب:** و يعني بعض الخصائص الديمغرافية: كالسن، الجنس، الحالة الزوجية.....

- **التغيير:** و يدل سواء على الزيادة أو النقصان الحاصل في مجموع السكان، أو أحد العناصر المكونة له، و ذلك عن طريق الولادات، الوفيات، الهجرة.....و هو المعنى الذي يؤكده أيضا "**لين سميث** "

في قوله:" أنّ الديمغرافيا في تناولها لظواهر الحجم و التوزيع و التكوين و التغيير، تهتم بالحقائق التّي يمكن التعبير عنها في صورة كمية لأنّ مادتها تقوم على الأرقام، فهي بذلك تتفوق عند حد التحليل الإحصائي للسكان، الأمر الذي يجعل البعض يطلق عليها اسم التحليل الديمغرافي، أو الديمغرافيا الشكلية، حيث أنها تجري معالجات للعلاقات الكمية بين الظواهر الديمغرافية و تحررها من ارتباطها بغيرها من الظواهر"[4].

أما **المعنى الأوسع** لها فإنّه يستهدف دراسة خصائص إضافية عن الوحدات التّي يتم دراستها كالسمات الاجتماعية و الاقتصادية، حيث تتعلق السمات الاجتماعية بالانتماء، القومية، الدّين، اللغة، الحالة الزوجية، المكانة الأسرية، مكان الولادة، التعليم، التحصيل الدراسي.....في حين تضم السمات الاقتصادية النشاط الاقتصادي، الحالة العملية، المهنة، الصناعة، الدخل، مستوى المعيشة.....و ذلك إلى جانب سمات و خصائص أخرى مثل: الميراث الجيني، الذكاء، الصحة.....كما قد يمتد اهتمام الديمغرافيا بمعناها الواسع إلى تطبيق بياناتها و نتائجها على عدد من الحقول الأخرى، من خلال دراسة المشكلات المتعلقة بالعمليات الديموغرافية، و التّي تتعلق عادة بضغط السكان على الموارد، التلوث البيئي، التحضر الشديد، التنظيم

4- علي عبد الرزاق جلبي، مرجع سابق، ص74.

الأسري، تحسين النسل، المشكلات الحضرية، القوى العاملة، سوء توزيع الدخل، البطالة و الفقر و ما إلى ذلك، و هي السمات التّي نادرا ما يتم معالجتها من قبل المصادر الاعتيادية للبيانات الديمغرافية، حيث يتم غالبا التغاضي عنها و إهمالها.

و هو المعنى الذي يؤكده كل من: " **هوسر Hauser** " و" **دنكن Duncan** "، و اللذان أجمعا على أنّ الديمغرافيا في إطارها الواسع، تتضمن إلى جانب التحليل الديمغرافي الدراسات السكانية، أي أنّها لا تقتصر على دراسة المتغيرات السكانية فقط، بل تشمل إلى جانبها أيضا دراسة التأثيرات المتبادلة بين المتغيرات السكانية و متغيرات أخرى(الاجتماعية، الاقتصادية، البيولوجية، وراثية، جغرافية.....)[5]، و ذلك ليس في وضعها الراهن فحسب، بل تتناول بالوصف و التحليل وضعها في الماضي و المستقبل، و تستقصي التغيرات التّي طرأت عليها في الماضي و تلك المتوقعة في المستقبل.

2- الجوانب التي تدرسها الديموغرافيا:

هناك جوانب يمكن أن تدرسها الديموغرافيا وتكون ضمن دراستها ومجالها العلمي منها:

1-الديموغرافية التاريخية: التي تدرس المجتمعات القديمة بحسب المعلومات المتوفرة والمدونة منها بالكتب والدراسات القديمة.

2-الديموغرافية الوصفية: التي تدرس حجم السكان في المجتمع وانتشارهم الجغرافي وبنيتهم وتطورهم من الجانب الوصفي الصرف بالاستناد إلى الإحصاءات الديموغرافية.

3-الديموغرافية النظرية أو الديموغرافية البحثية: التي تتناول قضايا السكان تناولا عاما ومجردا حيث تركز على جمع البيانات و الإحصاءات وتخمينها وتعديلها وتحليلها والتنبؤ بها.

4-الديموغرافية الرياضية: والتي تتداخل مع الديموغرافية النظرية لاعتمادها على الطرائق الرياضية.

5- الديموغرافية الكيفية أو النوعية: حيث تدرس بعض الخصائص سواء كانت جسمية أو فكرية أو اجتماعية في المجتمع والسكان ومنها دراسة الخصائص الوراثية فتؤلف موضوع علم الوراثة الديموغرافي.

5- مصطفى خلف عبد الجواد، علم اجتماع السكان، دار المسيرة، عمان، الأردن، 2009،ص15.